

مايو 2003

أين الخطأ؟ برنارد لويس - ترجمة: محمد عناني تقديم: روف عباس القاهرة: دار سطور، 2003، 268 صفحة

أجندة لويس فيها - أحيانا - ما يفيد!

عماد الغزالي

منذ صدوره ملاً هذا الكتاب الدنيا وشغل الناس، فمؤلفه واحد من كبار المستشرقين الذين يصنفون في الغرب بوصفهم «خبراء» في شئون الإسلام والمسلمين. وهو واحد ممن يعتد بتصوراتهم وأفكارهم عن الإسلام لدى صناع القرار ومخططي الاستراتيجية الغربية، حتى أنه «استدعي» - كما يقول الدكتور روف عباس في تقديمه - إلى واشنطن 6 مرات منذ حادث البرجين للقاءات سرية مع كبار المسؤولين بالبيت الأبيض والبنيتاجون.

والكتاب الذي أقبل عليه الناس في أمريكا بعد أحداث 11 سبتمبر في محاولة للفهم، لا يتعرض للأحداث، لكنه قريب الصلة بها كونه يفتش في النسق ويحلل الأفكار التي تقف وراءها.

واستناداً إلى إحاطة شاملة بكتابات لويس وانتماءاته اليهودية العنصرية ومواقفه العملية إزاء العرب والمسلمين، يرفض الدكتور روف عباس - وهو أستاذ تاريخ مرموق - كثيراً من أفكار لويس ويدحضها علمياً، وبينها أنه يتعامل مع الإسلام والمجتمعات الإسلامية ككتلة واحدة، فلا يرى فيها سوى تركيا والدولة العثمانية، غاصاً البصر عن تمايزات وفروقات مهمة في المجتمعات الإسلامية على اتساع رقعتها الجغرافية، ومنها اعتبار الإسلام ديناً يرفض الآخرين ويعاديهم ولا يقبلهم إلا عبيداً لا يستحقون المواطنة، وإجمالاً يرى لويس الإسلام والمسلمين محكوماً بمركزية أوروبية وصهيونية مقبلة تحكم رؤاه وتتحكم في آرائه.

غير أن ما يلفت في هذا الكتاب، أن أكثر انتقادات الدكتور عباس في غير موضعها، وأظن أن معرفته بكتابات المؤلف السابقة طغت على قراءته للكتاب مستقلاً عن سوابقه، فاستنطقه بما ليس فيه.

مثلاً يرى الدكتور عباس أن لويس اختزل الإسلام في الإمبراطورية العثمانية كى يقدمه للغرب بوصفه خطراً يهدد وجوده، وأن الخطأ هو في الإسلام ذاته الذي يرفض الآخرين ويمقتهم، فيما يرفض لويس هذه المقولة ويؤكد على أن أصحاب الديانات الأخرى عوملوا في ديار المسلمين بأفضل مما عوملت به الأقليات الأخرى في الغرب.

وفيما يؤكد الدكتور عباس أن لويس يحقّر الإسلام كعقيدة ويعده سبباً في تخلف المسلمين، نجد لويس يقر بأن ذلك لو كان صحيحاً ما حقق المسلمون في الماضي إنجازات في كافة المجالات وأقاموا إمبراطوريتهم التي أضاعت ظلام العصور الوسطى في أوروبا. وبدلاً من السؤال: ماذا فعل الإسلام بالمسلمين؟ يطرح لويس السؤال بطريقة مغايرة: ماذا فعل المسلمون بالإسلام؟

وبشكل عام، فإن «الأجندة» التي يقدمها برنارد لويس فيها الكثير مما يردده عقلاؤنا، فالرجل يشير إلى جناية غياب الحرية، ويعدها سبباً لكثير من متاعبنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهل منّا من يجادل في أن غياب الحرية سبب ما آلت إليه أحوالنا؟

والرجل يدعونا إلى التوقف عن إلقاء تبعات تخلفنا على الغير، سواء كان هذا الغير استعماراً غربياً أو صهيونياً أو أمريكياً، وأظننى معه، فما جرى قد جرى ولن يفيد كثيراً البحث عن الجاني، بقدر ما سيجدى اكتشاف طرائق لتصحيح الخطأ، وهو يحذرنا من الاستمرار في هذا الطريق الذي تجرنا إليه الحكومات المستبدة، كونه يغض الطرف عن طغيانها وانعدام فعاليتها ويحيل النظر إلى الآخرين.

ينصحن لويس نصًا: «إذا استطاعت هذه الشعوب أن تطرح إحساسها بالظلم وبأنها ضحية، وأن تسوى خلافاتها، وتعمل على تكاتف طاقاتها ومواهبها ومواردها لتحقيق أهداف إبداعية مشتركة، فسوف تعيد الشرق الأوسط إلى ما كان عليه، مركزاً رئيسياً للحضارة».

هذا بعض ما يرد في «روشته» برنارد لويس، وفيه مكاشفة جارحة لكنها صحيحة ولا يجوز ردها.

يقول العزيز الحكيم «..ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوي».

وجاء في الأثر: «الحكمة ضالة المؤمن يئشدها أنى وجدها».

http://www.weghatnazar.com/publication/publication_details.asp?id=77&issue_id=20